مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 12، العدد 48 (خريف 2001)، ص 122

إبراهيم أبو لغد

ليلى أبو لغد*

عودة أبي إلى فلسطين

لاحظتُ شيئاً جديداً في شقة والدي عندما دخلتها. رأيت على جدار غرفة الجلوس صورة بنّية كبيرة، ثلاثة أقدام بثلاثة أقدام ونصف قدم، وهي صورة فوتوغرافية مكبّرة لبلدة عربية قديمة على شاطىء البحر. وقد كُتب في أعلاها بالعربة: يافا.. سنة 1936.

قرّر والدي "العودة إلى فلسطين في إثر الانتفاضة الأولى. ولعله أحس فجأة بدنو الأجل بعد نزيف أول مرة خطر وإجراء عملية جراحية. عندما زرته أول مرة في رام الله سنة 1993، مع زوجي وأطفال، لم يكن اتخذ قراره النهائي بعد بشحن كتبه وأثاثه. لكنه كان مسروراً لوجوده هناك، حيث شعر بأنه في موطنه، لا لأنه عاش دائماً في هذه البلدة في الضفة الغربية، مصيف الأغنياء عندما كان فتى في يافا، وإنما لأنه يعيش بين أقرانه الفلسطينيين.

كان متحمساً ليطوف بنا في فلسطين كلها، من نابلس إلى الناصرة، ومن أريحا إلى يافا. كان يريدنا أن نتوجه إلى يافا بصورة خاصة. كانت هذه الجولة، وهي نفسها التي يعرضها على كل من قدم للزيارة، تعني المناداة بحقه في المدينة التي ولد فيها، والبحر الذي سبح فيه، واليست الذي أُجبر على الهرب منه سنة 1948، والمطالبة باستردادها.

في زيارته الأولى سنة 1991 أخذه أصدقاؤه إلى يافا. سار فيها جيئة وذهاباً وقد ضلّ سبيله فيها تماماً. لم تكن المعالم البارزة موجودة. ولم يعد البيت الذي ترعرع فيه موجوداً، على

---

* في ذكرى والدها الذي توفي في 23 أيار/ مايو 2001 ووري في يافا. كُتبت هذه المقالة أصلاً في آذار/ مارس 2001. وقد قمنا بترجمتها عن الإنكليزية حيث نشرت في: *Jerusalem Quarterly File*, 11-12, Winter-Spring 2001, pp. 5-10.

وليلى أبو لغد هي أستاذة الأنثروبولوجيا في جامعة كولومبيا.

الرغم من أن أخاه فعل قبل عشرين عاماً ما فعله كثيرون من الفلسطينيين: طرقوا الباب ليعرفوا أي اليهود، روس أو مغاربة أو يمنيين أو بولونيين، يقيمون الآن بمنازل عائلاتهم القديمة.

لكن والدي لمح الجامع الذي كان، وهو في سن الثالثة عشرة، يساعد إمامه في تسلق درجات المئذنة لرفع الأذان، وكان وافق على القيام بذلك بحماسة للتفوّق على إخوته والفوز برضى والده. كان هذا المسجد مسجد حسن بك. ومن هناك تمكن من معرفة مكان وجود المقهى. وتذكّر كيف كان يتسكع خارجه في الليالي على أمل الاستماع إلى الحكواتية، وكيف كان يطرد لأنه لم يكن يملك المال ثمناً للشاي. ورويداً رويداً، أخذ يعرف طريقه بتوسيع دائرة طوافه حول الجامع.

لكنه لقي شيئاً آخر في زيارته الأولى ليافا زاد في ثقته بأن "الفلسطينيين لا يزالون حاضرين هناك." فقد سأل بعض الصبية في الشارع، وتبين أنهم عرب، إن كانوا يعرفون مكان شارع الملك فيصل. فأخذوه إلى هناك على الفور، مع أن لوحة الشارع تذكر اسماً مختلفاً تماماً. ومن ذلك عرف أن الآباء الفلسطينيين لا يزالون يعلّمون أطفالهم الأسماء القديمة للمسميات، على الرغم من أن إسرائيل "دفنت" فلسطين ومحتها وأعادت كتابتها.

ثمة مشهد في إحدى "القصص الإفريقية" لدوريس لسنغ (Doris Lessing) لم يفارقني قط. كنت قررت هذه القصة القصيرة لتلامذتي في مادة الاستعمار قبل 15 عاماً. تنظر مستوطنة بيضاء شابة في جنوب إفريقيا إلى السافانا وأشجار السنط فترى أشجار السنديان الكبيرة العجراء المذكورة في الحكايات الخرافية الإنكليزية. والدي كان يرى العكس. ففي حين كنت أنا التي لا أعرف شيئاً آخر، لا أرى سوى الأخاديد العميقة في سفوح التلال الخضر التي أنشئت للمستعمرات الإسرائيلية ذات السقوف القرميدية الحمر، وأميال طويلة من الطرقات التي تقطع المناظر الطبيعية الصخرية وتزعم ملكيتها بلافتات خضر عصرية كُتب عليها بالعبرية والإنكليزية، كان ينظر إلى ما وراءها وبينها وخلفها، إلى المناظر الطبيعية التي ألفها في صباه.

كان يسافر، كما يقول، في كل أنحاء فلسطين مع عمال من مسبك والده عندما يقومون بتسليم مضخات الماء ومعاصر الزيتون وتركيبها وإصلاحها. ولا يزال يعرف طريقه على الرغم من أنه مُنع من العودة ما يزيد على 40 عاماً. يرى بيارات البرتقال، حيث ربما سرق برتقالة أو اثنتين في صباه (أربط بينه وبين البرتقال لأنه يحبه، ولطالما قشره وأكل بضعة فصوص، ثم وزع الباقي على أولاده، وأنا أعلن أنه يعز عليه النظر إلى برتقال يافا في المتجر وقد ذُكر أن مصدره إسرائيل).

يرى الصبّار العنيد الذي لا زال يعين حدود الحقول العربية التي لم تعد موجودة. وفي ثنايا المنشآت الجديدة التي تسود البلدات والمدن، لا يلاحظ إلاّ النوافذ المعقودة للبيوت العربية القديمة التي نجت بطريقة ما من الدمار. أشباه خرائب يُعيد بناءها في مخيلته.

تبدأ جولة أبي في يافا بالمصنع الذي أنشأه والده سنة 1929 عند ضواحي المدينة. يذكر رجلاً أفغانياً مسناً كان يحرس مصنعهم. كان هذا الرجل ذو الشاربين الأبيضين يسحرهم بقراءة أكفّهم. كان لديه إحساس غامض بأنهم سيغادرون يافا جميعاً. لكنه قال أنه لن يغادرها، ولم يغادرها في الواقع؛ فقد دهسته سيارة قبل أحداث 1948.

يركن والدي السيارة في الطريق قرب سبيل "أبو نبّوت"، ويشير إلى المنشأة الصناعية التي اسمها في أيامه "الشركة الفلسطينية المحدودة لسبك الحديد والنحاس"، وهو اسم لا يزال مطبوعاً على أغطية فتحات المجارير الموجودة إلى الآن في شوارع يافا. كان هذا المصنع لسبك المعادن يقدم الخدمات للمزارعين الفلسطينيين العرب بصناعة مضخات الديزل والكسارات والمعاصر التي يحتاجون إليها في بساتين البرتقال والزيتون. لقد تعلم والده مهنته أولاً من بعض الألمان الذين غادروا عندما استولى البريطانيون على مصنعهم في أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم عمل بعد ذلك مع يهود ألمان.

وفي وقت لاحق قرر والد والدي إقامة شركة خاصة به، حيث قدم له الأقرباء خمسة جنيهات من هنا وخمسة جنيهات من هناك كمساهمين. وهذا ما مكّن العرب من عدم الاعتماد على الصناعة الأجنبية أو اليهودية. وكان المصنع، خلال الأعوام العشرين تقريباً من عمره، قد أُغلق عدة مرات من قبل البريطانيين. وفي سنة 1936 وسنة 1937، زمن الثورة الفلسطينية الكبرى، اتُّهم والده بصناعة السلاح سراً. وعندما ختموا مصنعه بالشمع الأحمر ذات مرة، قام سراً بنقل كل الآلات وتهريبها قطعة قطعة عبر بيارات البرتقال خلف المصنع، وحملها على عربات تجرها الحمير إلى موقع جديد.

لقد جلبت نشاطات جدي الوطنية المشكلات لهم. ويذكر والدي الغارات التي كان يشنها على منزلنا الجنود والشرطة البريطانيون. كانوا يندفعون إلى الداخل طالبين من الجميع رفع الأيدي، ثم يهجمون على المطبخ ليعبثوا بأكياس الذرة والأرز بحثاً عن الأسلحة. وقد تعلم أبي وإخوته باكراً أن يعرّفوا الزوار الكثر الذين يؤوونهم من الريف بأنهم من أبناء الأعمام. وتعرّفوا باكراً أيضاً على المحامين وحراس السجون البريطانية الذين يمكن رشوتهم لتهريب الطعام والوسائد إلى والده. كان جدي يخرج من السجن ليعود إليه. وقد توفي سنة 1944، وكان عمر أبي عندئذ 15 عاماً. لكن مصنعه واصل الإنتاج إلى أن انهار في حرب 1948.

كان البريطانيون هم العدو بالنسبة إلى والدي، الذي نشأ في فلسطين تحت الانتداب. ويتعجب اليوم كيف لم يستشعر أحد أن الصهيونيين هم الخطر الحقيقي. لقد كبرت وأنا أستمع إلى قصصه عن خلافات الصبا مع البريطانيين. وقد حدثني مؤخراً عن اعتقاله أول مرة: "ان البريطانيون يفرضون منع التجول مثلما يفعل الإسرائيليون الآن. وكنا أولاداً في التاسعة أو العاشرة، وأذكر أننا كنا نتوجه إلى أحد الجنود ونشتم: '... يا جورج'!

"وذات مرة اعتقلت دورية أخي الأكبر واقتادته إلى قسم الشرطة. فصفعوه ثم أفرجوا عنه. كان كل من يُعتقل يُصبح بطلاً. أردت أن أصبح بطلاً أيضاً؛ فقد كنت دائم التنافس مع أخي الأكبر. لذا عندما كنت أرى شرطياً على دراجة نارية، كنت أفعل الشيء نفسه: '... يا جورج!' لكن السفلة لحقوا بي وبرفاقي! فلجأنا إلى أحد الأفران؛ كنت خجلاً من ذهابي إلى هناك لأنه كان مقفلاً واضطررنا إلى الدخول من باب جانبي. دخل أحد الجنود البريطانيين وقبض علينا متلبسين، حيث كنا واقفين لا نفعل شيئاً.

"قبضوا على أربعة منا. كانوا على أربع دراجات نارية، وقد أجبرونا على الركض أمامهم. كانوا يحملون سياطاً. كنت أرتدي جلاّبية، وهي اللباس الذي نرتديه في الشوارع، لذا كان عليّ أن أرفعها وأمسك بها بأسناني كي أركض. تعبنا لكنهم كانوا يجلدوننا بالسياط ليجبرونا على متابعة الركض. كان الناس ينادون عليها من بيوتهم، 'أدخل يا إبراهيم! أدخل يا محمد'!" لكننا كنا نخشى أن يلحقوا بنا لذا تابعنا الركض."

وبعد كثير من البكاء، بعضه حقيقي وبعضه زائف، أُفرج عنهم، لكن ليس قبل أن أنّبهم المتعاون المحلّي، ثم طاردتهم في طريق الرجعة كلها دراجة نارية أُخرى وجلدهم الجندي ثانية. ومن طريقة رواية أبي للقصة ترى الجانب المضحك لولد نحيل يريد أن يتفوق على أخيه بأي طريقة ويركض ممسكاً بجلاّبيته بأسنانه.

يقول أنه تعلّم درساً بليغاً عندما أوقف ثاني مرة. والسبب في ذلك أن الشرطة البريطانية تعلمت درساً أيضاً. فبدلاً من إطلاق الأولاد، جعلتهم يعملون. وقد أُمر أبي وأصدقاؤه بنزع كل الأعشاب بأيديهم من فناء قسم الشرطة لتحويله إلى ملعب للتنس.

قال أبي: "أخذ العمل ساعتين من وقتنا لإنهائه. فماذا يفعلون بنا الآن؟ كان منع التجول لا يزال سارياً، لذا طلبوا منا نقل العشب من جانب إلى آخر في الحديقة لإشغالنا بالعمل فحسب. وقد استبد بنا التعب، وكنا نُضرب باستمرار. لا أنسى وجه 'أبو نياب'، ابن...، الذي أوسعني ضرباً. أخذنا نبكي. لم نكن نريد أن نسجن، بل كنا نريد أن نصبح قادة.

"بالنظر إلى أحداث الماضي، لعنة الله على مثل هذه الوطنية. كان علينا أن نُضرب ونُعذّب لنصبح قادة." ومنذ ذلح الحين، صار أبي يناضل ضد الاحتلال الاستعماري (الصهيوني الآن، لا البريطاني)، لكن في إطار القانون دائماً، باستخدام عقله وقلمه وموهبته الخطابية.

من المحطات المهمة في جولة يافا المدرسة الثانوية؛ تلك المدرسة التي علّمته جغرافية إنكلترا بصورة جيدة جداً، بحيث أنه عندما وطئت قدماه لندن أخيراً، كان يعرف أسماء كل الشوارع. تحمل المدرسة اليوم لوحة كُتب عليها اسم "مدرسة وايزمن"، لكنها كانت في أيامه المدرسة الأميرية الثانوية الرسمية. نظر من خلال البوابة وحاول إقناعهم بالدخول.

تمكّن من ذلك ذات مرة، وكان بصحبة أصدقاء زائرين من الولايات المتحدة. كان عليهم أن يتركوا جوازات سفرهم الأميركية مع الحرس. وجد أنها ما زالت على حالها، كما اعتقد، باستثناء أن الرسوم على الجُدُر من صنع أطفال يهود. كما أنها مدرسة مختلطة اليوم، فقد كانوا يتسلقون الجدار للإشراف على مدرسة البنات السابقة، الزهراء.

يشعر أبي بالدهشة عندما يعود بفكره إلى عامه الأخير هناك، سنة 1948. فنظراً إلى أن البريطانيين كانوا على علم بوقوع الاضطرابات، فقد أعلنوا تقديم امتحانات نهاية العام الدراسي إلى آذار/ مارس. جدَّ أبي وأصدقاؤه في الدراسة. كان القتال يدور في أنحاء البلد. وكان يدور بين يافا وتل أبيب. وفي كل يوم بعد المدرسة، كان يذهب مع أصدقائه للمساعدة، حتى عندما يخبرون أمهاتهم بأنهم ذاهبون للدراسة. عُهِد إلى الطلاب بمسؤولية نقاط التفتيش، إذ يُفترض بهم معرفة الإنكليزية والقدرة على التمييز بين البريطانيين واليهود. لكن لم يكن لديهم أدنى فكرة.

عندما قُتل أخو أعز أصدقاءي أبي، أصرّ أبي على صديقه الاختيار بين تقديم الامتحانات أو السير في الجنازة. كان نجاحهم في امتحانات آخر العام الدراسي أمراً حاسماً، وكانوا يعتقدون أن مستقبلهم يتوقف عليها. وعندما جاؤوا لتقديم الامتحانات، وجدوا أن سقف المدرسة التي ستُجرى فيها امتحانات شهادة المترك الفلسطينية قد نُسف. تابعوا الامتحانات على الرغم من العقبات.

وعندما سمعوا نتائج الامتحان، من راديو إسرائيل، كانت وزارة التربية اليهودية هي التي أعلنتها – لم يعد هناك وزارة عربية. كان والدي عندئذ لاجئاً في نابلس، وسرعان ما غادر إلى عمّان. وأرسل برقية إلى أعز أصدقائه بعد أن أصبح لاجئاً في بيروت. إنه يذكر سخرية الأقدار هذه: "كان نجاحنا مثيراً للفرح! وها نحن لاجئون لا مستقبل لنا."

تُتابَع جولة أبي في يافا عبر جادة تمر بمكتب بريد استعماري مهيب (حاول جاهداً استعادة صندوق بريده القديم من دون جدوى، من أجل لذة استلام رسائل معنونة إلى يافا)، ومبنى المحكمة الذي حلم بممارسة القانون فيه، مشبّهاً نفسه بالمحامين المشهورين في الأفلام

المصرية الذين يمكن أن تُكسبهم فصاحتهم دعاوى الناس، ومكان كان فيه دكان مثلجات حيث كانوا يتسكعون ويراقبون الفتيات اليهوديات (اللواتي كن أقل تحجباً من فتياتنا).

وفي الجولة أيضاً بناية سكنية ليس لها صفة تُذكر. كانت يافا وتل أبيب متجاورتين. وعندما ازداد التوتر في أربعينات القرن العشرين، انقسمتا بين العرب واليهود. اقترب القتال في شتاء 1947–1948 من الحدود بينهما، وأصبحت محلة أبي خطرة جداً فجأة وعرضة لقذائف الهاون ونيران البنادق. فالتجأوا إلى ابن عم يعيش في البلدة القديمة.

بعد أسبوعين، أدركوا أن القتال سيستمر مدة أطول مما يتوقعون، وأنهم لن يعودوا إلى البيت عما قريب. وعندما نسفت منظمتا الإرغون والهاغاناه اليهوديتان قصر العدل، غير البعيد عن منزل ابن عمي، وقُتل 69 شخصاً، معظمهم من الشبان، رأوا أن من الأفضل أن تنتقل العائلة إلى محلة أكثر أماناً.

تطوع أبي لمساعدة اللجنة القومية للدفاع عن يافا التي أنشئت على عجل. ومع أنه غير مدرب فقد أعطي بندقية قديمة لم تنفعه إلاّ في بحثه التالي عن شقة. ففي اثناء قيامه بالبحث، سمع عن شقة شاغرة فذهب لزيارة وكيلها المحلي. أوضح له بأدب وضعه اليائس، لكن الرجل رفض تأجيرها لأنها تعود إلى زوجين في شهر العسل.

رجاه أبي وأكد له أنهم يريدونها موقتاً، وأنهم سيتركونها فور عودة الزوجين. لكن الرجل كان عنيداً، الأمر الذي اضطر أبي إلى إظهار البندقية. وأخيراً تم الاتفاق على الإيجار. كانت شقة حديثة، فيها أول مغطس حمام ومرحاض يرونهما في حياتهم، لكن أمي لم تكن سعيدة فيها، ولم تمكث فيها طويلاً. فمع سقوط المزيد من مناطق يافا وورود الأخبار عن مذبحة دير ياسين التي راح ضحيتها كثير من سكان القرية، دب الخوف والذعر. وتقرر أن تتوجه النسوة والأطفال إلى نابلس في انتظار جلاء الأمور. ولم يعودوا قط، على غرار الزوجين اللذين كانا يمضيان شهر العسل.

تضم الجولة أيضاً تلك الأماكن التي أمضى فيها أبي آخر أيامه ولياليه "مدافعاً" عن يافا في عمر 19 عاماً. أخذ الطعام ينفد، واقفلت الأفران، وتساقطت قذائف الهاون المنطلقة من تل أبيب على المدينة. وأضحت شوارع معظم المناطق مقفرة الآن. كان البريطانيون يرافقون قواف الهاربين. وهناك مكان يشير إليه أبي ألقى فيه مع رفيق مدرسته بندقيتيهما ورحلا.

فقد الاتصال بأخيه الموجود على جبهة أُخرى؛ ومن تبقى من العائلة كانوا قد رحلوا. في صباح الثالث من أيار/ مايو، انضم أبي وصديقه إلى حشد في صندل صغير ينقل الناس من الميناء إلى سفينة أُعلن أنها آخر سفينة تنقل الناس إلى بر السلام. وقد أرسلها الصليب الأحمر، وكانت متوجهة إلى بيروت.

لكنهما ترددا وهما يتساءلان عما يفعلانه، وقررا العودة إلى الشاطىء. فهما في النهاية جزء من اللجنة القومية التي تحث الناس على عدم الهرب، وتصر على أن المدينة آمنة، وتعد بأن التعزيزات قادمة في الطريق (ولم تكن كذلك).

عندما رجعا، أدركا أنه لم يبق أحد. كانت النيران تنطلق من الجانب الآخر فقط. وعند الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً، شاهدا الدخان يندفع من مدخنة السفينة. لقد حان وقت الرحيل. ألقيا السلاح وركضا للحاق بآخر مركب. ولا تزال كلمات البحار البلجيكي الذي قابلهما على متن السفينة يتردد صداها في أذني والدي: "كيف هان عليكم مغادرة وطنكم؟"

تنتهي جولة يافا بالبحر دائماً. يتجاهل أبي اللغة العبرية المحكية من حوله والأزواج الشبان الذين يرتدون الجينز الضيق ويتغازلون ويضحكون، والعائلات اليهودية الشرقية القادمة للنزهة. يتخذ لنفسه مكاناً على الرمل، ويذهب للسباحة. ثم يجلس وينظر إلى البحر نظرة يشوبها الحزن والأسى.

جواز سفره الأميركي الأزرق يتيح له الجلوس على الشاطىء في يافا حيث كان يسبح مع الدلافين والسلاحق، الشاطىء الذي كانت أمه تراه من نافذتها وهي تشرب القهوة. ويتيح له شعره الأبيض وقبعته السوداء المرور كأجنبي، كشخص يستطيع العبور بالتحدث بلغة إنكليزية سريعة أمام الجنود الإسرائيليين الذين لا تتجاوز سنهم عمره عندما غادر يافا. لوحتا السيارة الصفراوان اللتان تحددان سيارته كسيارة إسرائيلية وتعطيانه حرية الحركة (لوحات السيارات التي تباع للزوار الموقتين الذين لا يدفعون ضريبة تكون بهذا اللون) كانتا تتيحان له إيقاف سيارته، من دون أن يُلاحَظ، إلى جانب سيارات الآخرين في مواقف السيارات على الشاطىء. إنها ألوان عودته إلى فلسطين.

كانت خيبة أمل أبي الوحيدة محاولة استعادة مشهد أسعد أيام طفولته، إجازات آب/ أغسطس عندما كانت عائلات يافا التي لا تملك من الثروة ما يتيح لها الذهاب إلى رام الله، تخيّم فوق الكثبان الرملية قرب البحر. كان المكان الذي يقصدونه يدعى روبين، لأنه قريب من مزار النبي روبين. كان الأطفال يطلقون لأنفسهم العنان، يسبحون ويأكلون مثلجات الفاكهة في النهار، ويتفرجون على عروض الدمى ويستمعون إلى القصص في الليل. وكان آباؤهم يأتون في نهاية الأسبوع فقط، وكانت النسوة يستمتعن بالتخلص من الرتابة اليومية للتنظيف والطبخ، إلى درجة أن العبارة التي كن يستخدمنها كانت أسطورية: "إمّا أن تروبنني وإمّا أن تطلقني!"

منذ أن عاد والدي أخذ يرجو اليافيين الكبار أخذه إلى روبين. زعم الكثيرون منهم أنهم يعرفونه، لكن لم يكن أحد يرغب في أخذه. أخيراً، في الربيع الأخير، أقنع بعض الأشخاص باصطحابه. بل إنهم استخدموا دليلاً. لكن عندما بلغوا المكان، والمزار من بعيد، لم يتعرف إلى أي

شيء. لم تعد الكثبان الرملية موجودة، وكل شيء مغطى بالأعشبا والجنبات. مشى متثاقلاً في المكان في حر النهار جاهداً للعثور على آثار لروبين الذي عرفه عندما كان طفلاً، وأخذ يشعر بالمرض. وتوالى المرض. وبعد تسعة أشهر كان يرقد في المستشفى يلفظ دماً مع السعال.

إنه في البيت الآن بعد أن خرج من المستشفى. ومع تضييق الحصار على البلدات الفلسطينية، كان يتمتم: "إنهم يخنقوننا". وهو نفسه مربوط بقارورة الأوكسجين، غير قادر على التقاط أنفاسه. لم يكن في وسعي إلاّ التفكير في أن الأمر لم يكن مصادفة.

ينظر من النافذة إلى تلال رام الله، والقدس في البعيد. لم يكن يملك القدرة على الخروج إلى الشرفة التي يمكن للمرء أن يرى منها يافا، في يوم رائق. وتأتي الأخبار بأن هناك الآن دبابات على الطريق بين رام الله والقدس. وقُطعت الطريق إلى جامعة بير زيت، التي درّس فيها سنوات، بخندق غميق حفره الجيش الإسرائيلي.

أخذ يكتسب بعض القوة، ويبدو أنه يتحسن. شقته مريحة، مملوءة بكتبه وبُسُطه وموسيقاه، وأكوام المشاريع الكثيرة التي عمل عليها منذ عودته، ولوحات التقدير الكثيرة الصادرة عن منظمات عربية في الولايات المتحدة اعترافاً بخدمته للقضية الفلسطينية. إنه محاط بالأصدقاء، لكنه يحتاج إلى أن يكون قريباً من الرعاية الطبية. يقول له الناس إن عليه التفكير في الانتقال، من جديد.

ملحق – أيار/ مايو 2001

اتخذ جسد والدي القرار عنه. لم تتحسن صحته، وأصبح ضعيفاً جداً لا يقوى على السفر إلى الولايات المتحدة. وكان يرغب في البقاء. أخيراً، في أواخر نيسان/ أبريل، جاء التشخيص من طبيب شاب ماهر في هداسا كان يحاول التوصل إلى ما يمكن عمله له: كان هناك ورم في الرئة لم تؤد الفحوصات السابقة إلى اكتشافه. وفي 23 أيار/ مايو مات محاطاً بالعائلة والأصدقاء حتى النهاية. وبعد يومين احتشد الناس من كل ركن من أركان فلسطين للسير معه، وأحسوا بالنسيم اللطيف القادم من البحر وهم يحملونه إلى منحدر يشرف على البحر الذي طالما سبح فيه، ودفنوه في مدينته المحبوبة يافا، قرب قبري أبيه وأخيه. وبدا جسده على غير عادة ممتلئاً ونابضاً بالحيوية وهو ملفوف بالعلم الفلسطيني؛ ولم تكن عودته إلى يافا مجرد رغبة تحقّقت، بل كانت رمزاً أيضاً. ■

شكر: إنني ممتنة لوالدي الذي طالما أخبرني قصصاً عن يافا؛ ولهشام أحمد، الذي أطلعني على سلسلة من المقابلات التي أجراها مع والدي سنة 1995، وخلال 2000 – 2001.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx